

انيبال^(١)

هو قائد من أهل قرطجة ولد فيها سنة ٢٤٧ قبل المسيح ومات سنة ١٨٣

يجدر بنا أن نعرض عن الكلام في حياة الاسكندر المكدوني الذاهبة على غير طائل وجدوى ، ونأخذ في ذكر حياة لا يفضلها حياة نبالة وحماسة : ألا وهي حياة القائد انيبال فنقول :

هو الرجل الذي أتاه الله جميع مواهب العقل ، وجودة الطبع ، وزينه بأفضل ضروب الاستعداد التام لإتيان أشرف المساعي ، وأسمى الأعمال الخطيرة وُلد في بيت قادة اشتهروا بالندود والدفاع عن استقلال مدينتهم ، حتى الممات . وكانت روحه كأنها نوع من المعدن قد صيغ في وسط اتون البغض والحقد المتقد حول رومة بجزل مطامعها . واذ بلغ التاسعة من عمره فارق قرطجة وصحب أباه إلى حيث كان متوى اجداده قصد ان يجيأ ويموت في محاربة الرومان . فدل ذلك ان الأعمال الحربية كانت مرتاد أمانيه ومرمى همه . فاعتاد منذ صغره الرقاد في ساحات الوغى ومواطن القتال ليكفي بهذا الاعتياد الوجع في عنقه من تعادي خشن الوساد ، وفي سائر جسمه التبرم من الاضطجاع على مثل شوك القناد وليأمن مظان الخاوف ، ويتمرن لبه على تدبر الأعمال الحربية بحيث يكون ، في أعظم الأهوال وأشد الحروب ، أفضل من غيره في أصفى الأحوال والأوقات . ثم بعد وفاة أبيه « أميلكار » العظيم ، وصهره « أسد روبال » اللذين قضيا نحبهما قبيلين في حومات الوغى ، انتخبه الجيش القرطجني قائداً عاماً ، مع أن سنه لم تتجاوز الست والعشرين اذ ذاك ، خلافاً لرأي مجلس الملاء القرطجني ، لأنه كان بنفسه على بيت بركا - بيت انيبال - عظم مكانته وشهرته ولما استولى انيبال على قيادة الجيش جعله مثله ممتكناً حقداً وحنفاً على الرومانيين ، ومحرزاً إقداً وثباتاً بليغين . ثم زحف به في أكباد اوروبا ، وكانت

(١) تابع المقاتلة بين نابوليون ومشاهير الرجال

حينئذ مجهولة المسالك، كأواسط أفريقيا الآن، واجتاز جبال « البيرينه » وجبال « الألب » في ثمانين ألف جندي، وقد فقد منهم أكثر من خمسين ألفاً في مسيره الشاق الشاسع الخارق العادة؛ واستمر سائراً لا تصدّه الصعاب والعقبات المتنوعة اعتقاداً وجوب محاربة رومة في بلادها، للتمكن من الاستحواذ عليها، إلى أن دخل إيطاليا، مشيراً على رومة أتباعها ورعاياها. فوثب على القواد الرومانيين واضطروهم إلى مزايلة مراكزهم ومعسكراتهم الحصينة ومنازلهم، بتظاهره باستصدار شأن بعض القواد، والاستخفاف بقلة شجاعته، وبما زين لكبرياء وخيلاء قوم آخرين منهم؛ وما زال بهم حتى ظهر عليهم شيئاً فشيئاً وكاد يكبتهم ويهزمهم كافة، لولا أن تصدّى له قرن مكافئ له في الشدة والبأس، وهو « فايوس » الذي أشار بأن من الواجب أن يُقاوم هذا الجبار ليس بقوة السلاح في وقائع حرب لا يطعم منها بالغلبة عليه، بل بفضل الثبات الذي هو من فضائل رومة الحقيقية

ولما رأى انيبال غلطة بانكاله على « الغالين » لعدم ثباتهم، وتحقق عدم إمكانه أخذ رومة ذهب إلى جنوب إيطاليا، وكانت البلاد ثمة متمدنة وحكوماتها متألفة من مجالس أشراف مستبدة برعاع الشعب، فخذشوكة الشرفاء مع كونه شريفاً، وسلم مقاليد الحكومة إلى الشعب، وجعل مدينة « كابو » عاصمة حكومته، متباعداً نزيهاً عن الملاحية والملاذخلاقاً ما توهم أو أوهم كثير من المؤرخين، إذ أنه لم يكن يعرف موارد الترف والتلذذ، ولم يذوق طعمها في كل حياته. ثم جدّد نشأة جيشه وأغناه بسلوبات فتوح البلدان. وما منعه خذلان أهل وطنه إياه أن استدعى إليه بشعوب الأرض وشبّ الحرب في اليونان وآسيا مستثيراً سكان الدنيا قاطبة لمقاومة الرومان. وما زال مدة اثنتي عشرة سنة فاتكاً بكل جيش روماني يخرج لقتاله، وله من نفسه ناصر معين، وهو رابط الجاش، رصوخ القدم في إيطاليا، حتى أن الرومانيين باتوا قانطين من جلالة عن بلاد إيطاليا

ولكن أتى يومٌ نقلوا فيه مراكز القتال وواقفوا إلى أفريقيا، تحت أسوار قرطجنة، فاستغاثت به مدينته، فخرج يقاتل العدو بجيشه المتضعع جيشاً منظماً

جديداً ، فنكص جذةُ الباسق وتقص حظه السابق ، فلم يجد بداً من ان يدين « لسدييون » الجديد الطالع نزولاً على حكم الدهر وتقلبات الأيام ، فعاد متحسراً متقطعاً الى وطنه ، وجعل يسعى في لم شعثه وإصلاح أحواله ، ليصير قادراً على نزال الرومانيين كره ثانية . ثم وشى به مواطنوه المتلبسون بالجور والاستبداد (تشيحاً للرومانيين) ، ففر الى المشرق لاثداً بحمي « انطويوخوس » الكبير ملك سوريا . ثم لجأ الى بلاط « بروز باس » ملك يثينيا ؛ فجد في طلبه جماعة من الرومان مناوئيه الى أن آيس من مداومة القتال ، فتناول سماً وقضى بهذا السبب . وهو آخر بطل من أبطال عشيرته لأنهم بأجمعهم ماتوا ميتته أحراراً في سبيل هذا القصد المقدس ، وهو مدافعة التسلط الاجنبي ومقاومته

وهن الممتع ايجاد مظهر ضعف في تضاعيف حياة هذا الرجل العجيب المتحلي بكل مزايا المروءة والعقل والإقدام . أجل لا يستطيع التماس مثل هذا الضعف او هذه النقيصة . ونحن نحاول فيه وجود ميل ذاتي كحب المال او اللذات او الطمع او غيره ولكن لا نجد في الرجل إلا ميلاً واحداً وهو بغضه اعداء وطنه . قد نسب اليه « تيت ليف » المؤرخ الروماني البخل والقسوة ولكن تهمته هذه في غير محلها . نعم ان انبيال قد جمع أموالاً طائلة ، ولكنه لم يستعملها قط لأغراض ذاتية ، وانما كان يخصصها لدفع رواتب جيشه .

قلنا إن أهل وطنه كانوا قد تركوا نصرته ، والجيش المذكور لم يعص قط اوامر قائده انبيال ، لما له من السطوة والهيبة والحكمة خلافاً لأمثاله من الجيوش المؤلفة من جنود غرباء وعصابات بربرية (١) مختلفة الجنسية والوطن واللغة . وقد

(١) ان معنى لفظه « بربري » في الاصل متوحش او غير متمدن ، فاسم البربر يطلق على كل الشعوب الهمجية الغير الداخلة في الهيئة الاجتماعية . وكان اليونان في سالف الزمن يدعون التمدن لأتسهم فقط ، ويطلقون لفظه برابرة على سائر الشعوب . اما الرومان فلما كانوا قد اخذوا التمدن عن اليونان فقد اطلقوا لفظه متمدن على اتسهم وعلى اليونانيين ، ولفظة برابرة على غيرهم من الشعوب — وتطلق الان لفظه برابرة او مفاربة على سكان تونس ومراكش والجزائر وطرابلس الغرب في شمالي افريقية ولكن ليس من رابط معنوي بين الاسم الاول واسم هؤلاء الشعوب الاخيرين

أرسل انيبال الى قرطجنة عدة امداد ممتلئة بالخواتم والتمتخ الذهبية التي احدها اسلاباً من قتلى اشراف الرومانيين ولكن لم نجد له في تضاعيف التاريخ ذكر مُنكر أنه، ولم يسفك دم انسانٍ بلا حرب . فينتج من كلامنا ان شهادة المؤرخ الروماني تعودُ على قائدها هذا بالفخر والشرف

وبالاختصار فان أقوال التواريخ والازمنة التي تواتت بعد هذا البطل سيرددها جميعُ الأمم والأجيال الى منقضى العالم . وذلك أن مظهر حياة هذا القائد المجيد ، هو أشرفُ مظاهر الحياة البشرية في هذه الدنيا لدلالته على همة عالية ، ومدارك سامية يندرُ وجودها ، خصوصاً حياته خلت عن كل أربٍ شخصي ، وأثرة ذاتية ، لم يلابسها إلا هوى فرد ، ألا وهو حبُّ الوطن حتى انه قضى أخيراً شهيداً محبته لوطنه

يوليوس قيصر

قائد روماني ولد سنة ١٠٠ قبل المسيح وتوفي سنة ٤٤ ق - م

ها انا موردون ترجمة شهيد آخر لم يتفان في حب وطنه ، ولكن ذهب قتيل الطمع - نريد به هذا الرجل العجيب المنقطع النظير ، الذي لم يكن يخلو عن ضرب من ضروب النقائص والذائل ، وكانت حياته كلها عبارة عن سلسلة تعديت على وطنه

والجملة فان هذا الرجل هو قيصر ، ثالث الرجال العظام المشاهير في في الاقدمين . ولد ونشأ وشب متحلياً بصنوف الصفات ، فانه كان شجاعاً فصيحاً لطيفاً كريماً جواداً مفرطاً في السخاء ، بيد انه كان يؤثر السذاجة في اعماله ، ولكن لم يكن عنده اقل هم في ان يفرق بين الخير والشر ، لا في العمل ولا المبدأ . وكان قصارى همّه ومبدأ جميع أعماله طلب الغاية التي قصر عن بلوغها